أبو عمران الشيخ قارئا للمعتزلة

خلوات حليمة*

الملخص باللغة العربية:

تعددت اهتمامات الشيخ أبو عمران بين البحث في قضايا التاريخ السياسية والاجتماعية والمعرفية، إلا أن مشروعه الفكري كان يصب في قضايا الفكر الإسلامي، خاصة مشكلة الحرية والتحرر، والتي يجد لها حلا في الفكر المعتزلي، وهو الفكر الذي خصّص له بحثا تتبع فيه مظاهر امتداده وتأثيره في أهم المدارس الكلامية والفلسفية في المشرق والمغرب الإسلامي، مفندا الاعتقاد الزاعم أن نجم المعتزلة قد أفُل منذ زمن المتوكل، مؤكدا على أنها كانت ولا زالت تمثل الوجه التنويري في الحضارة الإسلامية، مؤمنا براهنية اللحظة المعتزلية، من خلال بحث أوجه التشابه الموجودة بينها وبين النظريات الغربية الحديثة خاصة في مسألة الحرية، لذلك دعا إلى تمثل العديد من القضايا الفلسفية التي كانت تؤمن بها ضمن منظومتها الفكرية؛ كالعدل والحرية في المجالين السياسي والاجتماعي.

كلمات مفتاحية: المعتزلة؛ الحرية؛ النهضة؛ أبو عمران الشيخ.

ملخص باللغة الإنجليزية:

Abstract: Abu Omran Sheikh interests were varieted between the search in polital historical, social and knowledge affairs, but in other hand his intellectual project, fowses on Islamic intellectual affairs specially the problem of freedom and being free, and for this later Abu Omran Sheikh found the solution of this problem in intellectual of Mu'tazila .He made a research about its aspects and affections in the most important speech schools and philosophy in the Islamic east and west, he was agaist the people who said

* طالبة دكتوراه، جامعة مصطفى اسطنبولي، ولاية معسكر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تحت إشراف: أ.د نابي بوعلي، (halimakhelouat@gmail.com) .

that the star of Mu'tazila was disappeared for a long time, Stressing the fact that it was and still represents the enlightenment face in Islamic civilization, believing in the paranoia of the moment, by examining the similarities that exist between them and modern Western theories, especially in the issue of freedom, and therefore called to represent many of the philosophical issues that were believed within the intellectual system; Such as justice and freedom in the political and social spheres.

Keywords: The Mu'tazila; Freedom; Renaissance; Abu Omran Sheikh.

مقدمة:

إن طرح سؤال الحرية في العالم الإسلامي يجرنا إلى التساؤل عن طبيعة هذه الحرية فهل يمكن تصور حرية خارج الدين أم من خلاله؟ فقد تعرضنا إلى موضوع الحرية عند المعتزلة ورأينا كيف أعطت للموضوع أبعادا دينية وسياسية، بحيث لم يتصوروا وجود حرية خارج الحقل الديني، إلا أن طرح إشكالية الحرية ضمن هذا الحقل غالبا ما ينتهي بالتأكيد على ضدها، والتاريخ الإسلامي حافل بمثل هذه المواقف، إن لم نقل أن أغلب القراءات انتهت إلى القول بضرورة الإيمان بالقضاء والقدر، وتحويله إلى ركن من أركان الإيمان، وحتى المجتمعات الغربية لما استحدثت طرقا جديدة للتفكير خارج الدين قيل: "إن القسيس في كل عصر من أعداء الحرية، وهو دائما حليف الحاكم المستبد يعينه على سيئاته في نظير حمايته لسيئاته هو الآخر"[1] ومن الهتافات التي كانت تردد في عصر النهضة "اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس"[2] وصورة القسيس هته لا تختلف عن صورة حراس العقيدة في تاريخنا الإسلامي، بحيث كانوا يرفضون الحرية لاعتبارات كثيرة إما لنصرة مواقف سياسية أو إيديولوجية. إلا أن الدراسة التي قدمتها المعتزلة عن الحرية رأى فيها الكثير من الباحثين أنها تتلاءم مع روح العصر، وجب إعادة بعثها واستلهام قيمها، وفي مقدمتهم الشيخ

[1] سلطان بن عبد الرحمن العميري، فضاءات الحرية بحث في مفهوم الحرية في الإسلام وفلسفتها وأبعادها وحدودها، المركز العربي للدراسات الإنسانية، القاهرة، ط2، د(س)، ص 39.
[2] المرجع نفسه، ص40.

أبو عمران* الذي خصص مشواره الأكاديمي لدراسة التاريخ الإسلامي على العموم والفكر المعتزلي على الخصوص، من خلال الأطروحة التي قدمها لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة السربون. إذا الإشكالية التي سنعمد إلى تناولها بالتحليل والدرس في هذا المقال هي: **ما هي خصوصية التجربة المعتزلية التي يراها أبو عمران الشيخ تستحق الإحياء والتمثل؟**

ولمعالجة هذه الإشكالية سنعمد إلى إتباع المنهج التحليلي الوصفي، حتى يتسنى لنا تحليل ووصف موقفه من المعتزلة ولماذا اختار موقفهم من الحرية كحل.

يطرح الشيخ أبو عمران في رسالته مسألة الحرية من منظورين أولا من خلال أنها الإشكالية التي تسببت في كثير من الفتن التي لازالت تعاني منها الأمة الإسلامية، فهي القضية العالقة التي اختلفت حولها الآراء أكثر من أي قضية أخرى، وثانيا أنها القضية التي حرمنا منها مثلما قال عبد الرحمن الكواكبي" أن البلية فقدنا الحرية وما أدرانا ما الحرية هي ما حرمنا معناه حتى نسيناه وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه "[1] وفقدان الحرية حسب الكواكبي ليس بلية فقط وإنما هو كارثة إنسانية جعلت منا همجا نعيش ولا نعرف معنى الوجود.

قام الشيخ أبو عمران من خلال أطروحته* ، بتحليل موقف المعتزلة من الحرية الإنسانية، وهو الموقف الذي ينتصر له، بحيث لم ير في التجربة الغربية أي

---

* **مفكر إسلامي من مدينة البيض عاش ما بين (1924-2016) " شغل مناصب عديدة: التدريس والتفتيش لمادة الفلسفة بالتعليم الثانوي، أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر(1965-1991)، وزير الاتصال والثقافة (1991) رئيس اتحاد الكتاب الجزائريين(1995-1996) من أهم مؤلفاته: قضية الحرية الإنسانية، نظرة شاملة على الفكر الإسلامي مع لويس غارديه، فصل المقال لابن رشد، معجم مشاهير المغاربة مع مجموعة من الأساتذة، الكشافة الإسلامية الجزائرية في جزأين، الأمير عبد القادر-المقاوم والإنساني" انظر: أبو عمران الشيخ، قضايا في الثقافة والتاريخ، ثالة، الجزائر، د(ط)، 2007، ص82.**

[1] **عبد الرحمن الكواكبي، أم القرى، المطبعة المصرية بالأزهر، د(ط)، 1931، ص28-29.**

* **مختصر ما جاء في الرسالة: " تشمل الرسالة على خمسة أبواب:**

-في الباب الأول: تناولت فيه أصول نظرية المعتزلة في قضية الحرية الإنسانية وعلاقتها بالفلسفة اليونانية من ناحية وبالفكر العبري المسيحي والنظرية الهندية والإيرانية من ناحية أخرى.

- في الباب الثاني تعرضت إلى نظرية القضاء والقدر عند الجبرية وانتقاد المعتزلة لها.

-في الباب الثالث بينت أن الإنسان حر في نظر المعتزلة ومخيّر في تصرفاته وعليه فإنه يتحمل تبعات أعماله.

-في الباب الرابع حللت علاقة العقل بالحرية الإنسانية.

-في الباب الخامس والأخير استعرضت انتشار الاعتزال في المشرق ولمغرب وحاولت إبراز تأثيره في أصلاح مجتمعنا"أبو عمران الشيخ،رسالة جامعية في فكر المعتزلة،مجلة الأصالة،العدد،38أكتوبر1976،وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ص42)

جديد، بل إنه يؤكد من خلال أطروحته أن الغرب استلهم من المعتزلة العديد من المواقف الفكرية في مقدمتها الحرية والتعويل على العقل، من خلال استحضار العديد من النماذج الفكرية كديكارت وليبتنز، وإن كان هذا الفرض يرى أنه يحتاج إلى دراسة معمقة تكشف جانب التأثير الذي مارسه المعتزلة على الفكر الغربي في شقيه المسيحي واليهودي، كما أن الشيخ أبو عمران لما افترض في مسألة الحرية كما يتصورها المعتزلة أنها الحل، فهو لا يرى الحل في التصور الغربي وذلك لتغاير المحيط من جهة، ومن جهة أخرى الحل المعتزلي يأخذ بعين الاعتبار الإيمان في التحرر، حتى لا تفهم الحرية بأنها الانفلات من كل مسؤولية أمام الله والآخر الذي أشاركه الوجود، فهي حرية مسئولة، لأن تقوية الحق الطبيعي في العيش على حساب الحقوق الأخرى هو عودة إلى الحياة المتوحشة بحيث القوي يأكل الضعيف.

فأبو عمران الشيخ بعودته إلى التراث الإسلامي واستلهام التجربة المعتزلية هي عودة إلى تأكيد أن التراث العربي الإسلامي يحوي نماذج كان لها صدى عند الآخر اليهودي والمسيحي وفي أقصى مشارق ومغارب الأمة الإسلامية، كما هي عودة تدعو المخيال العربي والإسلامي إلى تمثلها لأن " الخطاب الفلسفي اليوم بعيد بعدا تاما عما يدور في الشارع العربي. فليس هناك حضور لمفاهيم الحرية بالمعنى الأنواري أو الرأسمالي الحالي، ولا حتى بمعناها الاعتزالي"[1] لذلك يرى الشيخ أبو عمران أن الموقف المعتزلي وإن كان يعكس لنا حدود وعي الأمة الإسلامية لأهمية الحرية ومدى العلاقة التي تربطها بها، فهو موقف "يحتل موقعا تاريخيا وثقافيا ذا أهمية خاصة من أجل معرفة أفضل بأفكار وعقائد العصر العباسي، الغني بمواجهة الثقافات الأخرى وحوارها"[2] هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمثل هذا الموقف " مصدرا للتفكير بالنسبة إلى عصرنا لأنه لم يكتف بتحرير الإنسان بوصفه فردا من الضغوط الخارجية التي تشل جهده وفكره، بل سعي كذلك إلى دمجه بمجتمع حي، عبر تعريف الشروط الايجابية التي تسمح للفعل الشخصي بالاندراج ضمن الجهد الجماعاتي"[3].

[1] عبد القادر بو عرفة، العرب وسؤال الحرية، تأملات في أوهام الوعي العربي المعاصر، أعمال الندوة الفلسفية السابعة عشر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009 ، ص158.

[2] Chikh Bouamrane. Le problème de la liberté humaine dans la pensée musulmane, (solution mu'tazilite), librairie philosophique, j.vrin1978, p349-350

[3] Ibid, p.350

فهو يرى في هذه التجربة ما يستحق الدراسة، وبالتالي فهو يتفق مع المدرسة العقلانية في المشرق الإسلامي التي كانت ترى في منهجية القراءة التي أسست لها المعتزلة المثل النموذجي للإحياء، إلا أن همه لم يكن فقط تجديد قراءة النص الديني وإنما الحرية أيضا التي "لا تكون مجردة ولا ذات طابع ميتافيزيقي أو أخلاقي فحسب، بل أنها تعانق كامل حقول نشاطاته العقلية، والأخلاقية، والسياسية، والاجتماعية"[4].

لكن إذا كان الشيخ أبو عمران يرى أن الموقف المعتزلي نحن الأولى بتمثله من غيرنا دراسة وتحليلا، لأنها تجربة منبثقة من تراثنا الإسلامي، مما يعني أنها قابلة للتمثل مادامت أنها كانت في فترة قديمة من المفكر فيه والمعمول به حتى وإن كانت في حدود ضيقة.

هذه الإمكانية في التفكير والعمل هي ما يدعو الشيخ أبو عمران إلى إعادة النظر في المسألة (الحرية) التي تقف ضدها اليوم العديد من المعوقات حتى باتت من المستوحشات كما يقول الكواكبي، لأن الإنسان العربي والمسلم مسلوب بالدرجة الأولى على مستوى الوعي، إذ تتجاذبه العديد من الأطراف الإيديولوجية من طرف الدين من جهة ومن طرف السياسية من جهة أخرى.

كما لا تكف العادات والتقاليد في جذبه وسلبه "بل يذهب الوعي المزيف إلى اعتبار أن أي تجديد في مقولات اللحظة الثورية هو خروج عن الحرية، فالتغيير والتجديد يصبحان من أضداد الحرية، لأن المخيال العربي يتشبث باللحظة الماضوية"[1] والماضي غالبا ما كان يقف ضد المدرسة الاعتزالية بكل مواقفها الفكرية حتى بلغ الوضع حد الاتهام بالتكفير، فالنظر إلى المشروع المعتزلي للحرية وهو المشروع كما أسلفنا الذكر يأخذ بعين الاعتبار الإيمان، لم يقبل كحل للوضع الإسلامي في الماضي، فكيف سنحيي هذه اللحظة وقد تطّبع الوعي منذ القدم بهذه الصورة المشوهة عن المعتزلة؟ هل نصحح الرؤية حول هذا الفكر حتى يُقبل الحل المعتزلي أم نترك الحل للآخر كما هو جار الآن؟ وهل تصحيح الرؤية كفيل بخلق إنسان متحرر أو يسعى إليه في وعيه وعمله؟

أعطى الشيخ أبو عمران صورة مقاربة عن الحرية في الفكر المعتزلي شملت كل الجوانب الفكرية والتاريخية المتعلقة بهذه القضية من الرد على القدريين والقائلين

---

[4] Ibid, p.350

[1] عبد القادر بو عرفة، العرب وسؤال الحرية، تأملات في أوهام الوعي العربي المعاصر، مرجع سبق ذكره، ص158.

بنظرية الكسب، وكيف سعت المعتزلة إلى تبرير الشر والرد على من نسبه إلى الله من خلال تحديد ما للإنسان وما عليه، بحيث لم تستثن حتى الكائنات غير المكلفة، وذلك للفصل بين قدرات الله وقدرات الإنسان، ليواصل الشيخ أبو عمران تحليل رؤيتهم إلى التكليف وعلاقته بالحرية لرفع التناقض بين الإلزام الأخلاقي الذي يفرضه العقل كمؤسس لمشروعيه الأفعال والمسؤولية الحياتية والاجتماعية والدينية (حرية الاعتقاد)، ليؤكد أن الحرية التي تتحدث عنها المعتزلة ما هي إلا ممارسة لمجموعة من الالتزامات مؤسسة من الوعي الإنساني بالاستناد إلى الدين والعقل معا، ليختم عمله هذا بالتأكيد أن كل من خالف المعتزلة في الاعتقاد بالحرية، وقدم الرأي البديل كان بصورة مباشرة أو غير مباشرة متأثرا بها انطلاقا من أهل السنة إلى المدارس المنشقة عنها.

ويتضح من خلال الآفاق التي يتمنى أن تتحقق التماسه لمجموعة من الإضافات الايجابية التي قدمتها يراها القابلة للتمثل، لأنه كما يرى الشيخ أبو عمران ليست من الجائز أن نتمثله في كليته بل "يبدو لنا ضروريا إجراء اختيار بين الأطروحات المعتزلية، لا الاحتفاظ بمجمل المنظومة، لن يكون وجود معتزلية محدثة محضة متلائما مع انشغالاتنا الحالية"[2]

لأن الانشغالات تغيرت بتغير الظروف فالأزمنة التي طُرحت فيها مشكلة الحرية والدواعي المحركة لهذا الطرح تختلف عن الماضي.

مما يعني أن الشيخ أبو عمران يسعى إلى بحث القضية وفق معطيات اللحظة الراهنة، أي إعادة تقديم دراسة فاحصة وناقدة جديدة، وإن كان يرى أن " دحض جميع المذاهب التي تعارضت مع مذهب المعتزلة مبررا لجعل تصوراته تنتصر "[1] فهذا الانتصار للمذهب المعتزلي هو اختيار مبرر ومبني على مجموعة من الاعتبارات نجيب عنها من خلال هذا السؤال، إذا ما هي الإضافات التي يرى فيها ضرورة الإبقاء من كامل المنظومة المعتزلية؟

أولا: الموقف المعتزلي "منح الإنسان معنى حياة أخلاقية مستقلة وأكد على المقتضيات الأساسية للعدل والحرية عبر منهجه وحسه البحثي، سمح بجهد ذهني

---

[2] Ibid. p348.

[1] Chikh Bouamrane. Le problème de la liberté humaine dans la pensée musulmane, (solution mu'tazilite),p348.

مستدام، يتأسس على تفاؤل معقلن، وعلى ضرورة وجود فعل متماسك"[2] فمشكلة الحرية وجدت لها المعتزلة الحل في صورة عقلانية متماسكة حسب الشيخ أبو عمران.

ثانيا: أن الطرح الأخلاقي الذي أخذته الحرية في المنظومة المعتزلية، أعطى للحياة نوعا من الاستقلالية تجلت في أسلوبين كما يؤكد أبو عمران "فمن جانب تتأكد مسؤولية الإنسان بمجال غير محدود، كانت الجبرية تريد إخضاع الإنسان لإرادة خارجية، إرادة الله أو القضاء الذي أمر به، وقد بلغ من حدة احتجاج المعتزلة على مثل هذا التصور أنه سمُع وأقر في كل مكان تقريبا"[3] فما يستهوي الشيخ أبو عمران في الطرح المعتزلي هو القول أن " الإنسان أبعد ما يكون عن الأداة، بل هو ذات، لديه القدرة والإرادة على الفعل ضمن بعض الحدود التي من المناسب تحديدها"[4].

حتى أنه يرى في هذا الطرح لم يخطئ مثلما فعلت النظريات المعاصرة له، والتي أعطت الحرية المطلقة له ونصبته ملكا، وإنما أبو عمران يرى في الحرية المعتزلية أنها مازجت بين القدر الإلهي والقدرة الإنسانية، وكأنها كانت تقول أن "الإنسان جزء من الكل، وهو ليس سيدا مطلقا للكون، ولا حتى لتصرفاته هو، إنه يخضع للشروط الطبيعية والاجتماعية التي يندرج ضمنها نشاطه"[1] وتلك هي النقطة التي أشار إليها برغسون "واستطاع أن يوجه الفكر الفلسفي إلى نقطة جوهرية تتعلق بعدم طرح مسألة التناقض بين الحرية والحتمية كمشكلة فلسفية، لأن التفكير الفلسفي المبني على الحدس والاستبطان حسم الأمر على أنهما متناسقان تناسقا كاملا، أو يمكن الحسم القول إنهما يعيشان حالة تناغم"[2].

ثالثا: ما ينتصر له في تحليله للموقف المعتزلي هو كيف أن المعتزلة آمنت بوجود نوع من القضاء المقيد للحرية، إلا أنها آمنت بالقدرة على التحرر من الكثير من العقبات، وتلك هي النقطة الإيجابية التي يلحّ على التمثل بها، فهي ليست هبة إلهية ولا تمرد وانتهاك للحقوق المدنية " بل تكتسب بجهد تحرري، وأداة هذا التحرر هو التفكير العقلي الذي يسمح للإنسان بوعي قواه والعقبات المعترضة لطريقه. العقل هو المبدأ

---

[2] Ibid. p343.

[3] Ibid. p 343.

[4] Ibid. p343.

[1] Chikh Bouamrane. Le problème de la liberté humaine dans la pensée musulmane, (solution mu'tazilite),p344.

[2] عبد القادر بو عرفة، العرب وسؤال الحرية، تأملات في أوهام الوعي العربي المعاصر، مرجع سبق ذكره، ص155.

الشامل الذي يؤسس للالتزامات الأخلاقية ويصف الأفعال. تخلق الأخلاق العقلية الثقة بعدل الله والبشر، وهي تستند إلى معطيات الأخلاق الطبيعية والوحي، لا إلى اعتباطية استبداد غير مقبول"[3]. يعني الحرية التي يسعى إليها المعتزلة ويراها أبو عمران الحل هي مقيدة، فحتى لا يستبد الإنسان بشهواته ورغباته ويعطي العنان لذاته بدعوى الحق في الحرية، فذلك هو التشويه لها، لأن أفعالنا ليست كلها حرة وإنما هي مقيدة وفق التزامات عقلية ودينية معا.

رابعا: حتى أن الحرية التي كانت تقصدها المعتزلة هي مؤسسة على القراءة الاجتهادية للنص الديني الذي دائما نحن في تفاعل مع خطاباته، وكأن بالشيخ أبو عمران يحيلنا إلى أن الوعي المؤسس على رفض التقليد به نستطيع أن نتحرر، فالقراءات المتحجرة تشكل عائقا بالنسبة إلى الوعي ولا تترك له المجال إلى التطلع إلى الحرية، بل تجعله يعيش في الوهم والخرافة أو حتى أنها تخلق له نوعا من الفهم الأسطوري للحياة يقدسه ويسترضيه، فلا يستمرئ التحرر أو يخطر على وعيّه، لذلك يؤكد الشيخ أبو عمران أن الإضافة الايجابية التي ينبغي تمثلها هي "المنهجية المعتزلية...عبر التأويل العقلي للنصوص، تزيح درب التقليد وتمهد للاجتهاد، عبر رفض المناهج الباطنية والحرفية، تحرّر التعقل وتسمح بالتحليل النقدي للمصادر والآراء. يؤدي الشك المنهجي والبحث العقلي إلى اليقين بثقة أكثر مما تفعله الامتثالية"[1].

لأن الاجتهاد يبعث على التحرر وعدم التقيد أو الامتثال، كما يبعث على البحث المستمر عن الحلول لمشاكل الأمة المتجددة، حتى وإن كان التجديد فيه من الجرأة العلمية التي تبعث إلى الدهشة، فقد اعتدنا مع أعلام المعتزلة مثل هذه الجرأة خاصة النظام والجاحظ، بحيث نجد أبو عمران يمرر إلى قارئه رسالة لا منطوقة يقول فيها أن التحرر هو جرأة في القول، وإلا لم يصبح تحررا بل تزييفا ومخاتلة في القول أو الفعل، فالنظام هو مثال حي لمثل هذا التحرر، بحيث وجه النقد إلى النص الديني ولم يخشى لومة لائم، لأنه كان يرى في ما كان متداولا، هو حشو ووهم وليس حقيقة تقال أو تنسب إلى نبي جاء ليحرر العقول، بل إنه حشو غرضه أدلجة الوعي ليصبح أكثر خضوعا وانصياعا، لذلك نجد أبو عمران يعتبر "النظام والجاحظ مدهشان بجرأتهما،

Chikh Bouamrane. Le problème de la liberté humaine dans la pensée musulmane, (solution mu'tazilite),p344. 3

Chikh Bouamrane. Le problème de la liberté humaine dans la pensée musulmane, (solution mu'tazilite),p344. [1]

وقد جرى لومهما على وصفهما بعض الأحاديث بأنها مشبوهة، لكن في نهاية المطاف، تبنى معظم ناقلي الأحاديث موقفهما، يقر محدّثون، على مثال ابن قتيبة ، ضرورة إخضاع تلك النصوص لتحليل نقدي صارم"[2].

خامسا: ويقدم لنا أبو عمران إضافة أخرى تحسب للمعتزلة هي "مطالبته بالعدل والحرية على الصعيدين السياسي والاجتماعي"[3] فموقفهم من الساسة معروف، بحيث أن مواقفهم في البداية جاءت كرد فعل على ما تروّج له السلطة الأموية من الجبر والإرجاء، لأن في ذلك انتهاك للحق في الحرية فمثلما لهم الحق في " تنصيب الحكام، لهم الحق في مراقبتهم. فمن غير الوارد إقرار سلطة وراثية أو تنسب نفسها إلى مصدر إلهي" [4] فإذا كانت جرأة المعتزلة وقفت في وجه رجال الدين إن صح لنا أن نستعير هذه العبارة، أو الممثلين والحاملين للنص الديني اتهامهم بالتشويه والحشو دفاعا عن تحرر الوعي، كيف لا تقف ضد ظلم الحكام وجبروتهم دفاعا عن تحرر الممارسة المدنية، فمن واجب السلطة كما قال الصاحب بن عباد: "تقديم العدل لجميع المواطنين وضمان حياة لائقة"[5]

سادسا: وهي الإضافة التي تدعو إلى العمل والاتكال على النفس بدل التوكل على قوى مجهولة، بحيث لم تتهاون المعتزلة في محاربة ظاهرة التوكل السلبي في المجتمع الإسلامي، وهي إلتفاتة إلى ممارسات قد تؤثر على الوعي الإنساني، ولها علاقة مع تصور المعتزلة للإيمان الذي ترى في العمل جزءا لا ينفك منه، وإلا كيف نقول عن الإنسان أنه حر مكلف ومسئول، إذ "تتعارض فلسفة الاعتزال بصدد الفعل تعارضا منهجيا مع التصوف والتوكل، لا بل مع القدرية الكسولة التي تنجم عنها في غالب الأحيان هذا التوكل مناقض لعقيدة الحرية التي تقتضي القدرة على الفعل والجهد الشخصي"[1] بحيث أن التوكل هو سلب للفعل وتعجيز للإنسان وإهدار للقدرات المتاحة.

هذه مجمل الايجابيات التي يرى فيها أبو عمران الشيخ القابلة للتمثل، وهي نفسها في الغالب الاعتبارات التي كانت تراها المدرسة العقلانية في المشرق الإسلامي القابلة للتمثل، ويقدم المصداقية لراهنية الاعتزال من خلال التأكيد على أن الكثير من

---

[2] Ibid. p345.
[3] Ibid. p345.
[4] Ibid. p345.
[5] Ibid. p345.
[1] Ibid. p345.

النظريات الحديثة في مسألة الحرية لازالت راهنية اليوم، بحكم أوجه الشبه التي تجمع بينها وبين الاعتزال مثل قول سارتر:" لا فارق بين وجود الإنسان وكونه حرا"[2] ولالاند الذي يقول: " إن حرية الإرادة تتمثل في انجاز فعل ليست له علة تقدّره"[3] ووليم جيمس الذي يقول: " نحن نتمتع بالقدرة على اختيار الخير أو عكسه، هذه الإرادة هي أساس الجهد الذي نحن قادرين عليه"[4] وبرغسون الذي يقول: "الحتمية من خصائص المادة الخام، لكنها تخلي المكان للاحتمية جزئية ما إن تظهر الحياة والوعي..."[5] بحيث يقدم هذه الشهادات الفلسفية الحديثة حتى يثبت من جهة جدارة الموقف المعتزلي في الفكر الإسلامي والذي يمثل موقفا مستنيرا، وأسبقية في الطرح الجدي للمشكلة، ومصادقة للتجربة المعتزلية من خلال المقاربة بينها وبين نماذج مماثلة استطاعت أن تمارس الحرية في الحضارة الغربية، مما يعني أن الشيخ أبو عمران لا يرى في تجربة المعتزلة التجربة المستحيلة الغير قابلة لتحقق، وإنما من كان يزعم أن عقلانية المعتزلية هي عقلانية متعالية الطرح، فإن الحرية على المنوال المعتزلي وجدت الأرض الخصبة لها في بلاد العجم، فالأجدر به أن يقول أنها نبتة لا تعيش في أرض العرب لانعدام شروط الحياة لها.

والمتمعن لأطروحة الشيخ أبو عمران يظهر له أنه لا يدافع فقط عن المعتزلة وإنما الإسلام ككل، لأن المعتزلة هي فرقة من الفرق التي تنتمي إلى هذا التراث وقارئة للإسلام وهو الدين الذي تعرض لكثير من الاتهامات "ووصف ككل وعلى نحو أكثر فظاظة بالجبر...وفي القرن الثامن عشر كتب فولتير تراجيديا عن محمد عنوانها الفرعي: التعصب، وهو ليس سوى جبر الشريعة السماوية الذي يتولاه الإنسان"[1] فإن كان أبو عمران يقارب بين المعتزلة ومختلف الآراء الغربية في العصر الوسيط والحديث، ويثبت أن صدى المعتزلة كان واضحا في أفكارهم، فإنه يدافع عن الدين الإسلامي من خلال هذه الفرقة التي يرى فيها أنها كانت الأقرب إلى روح الإسلام، وكأنه يريد أن يصحح نظرهم بأنهم هم أصحاب الجبر والقدرية والتعصب منذ العصر اليوناني إلى العصر الوسيط، في الوقت الذي كانت فيه النظرية مكتملة الأصول عند المعتزلة.

---

[2] Ibid. p347
[3] Ibid. p347
[4] Ibid. p347
[5] Ibid. p347
[1] Ibid. p4.

وما يمكن أن نقوله عن تحليل أبو عمران الشيخ لموقف المعتزلة من الحرية الإنسانية، أنه يلقي اللوم على الإنسان العربي والمسلم؛ لأنه كان السبّاق في إلهام الآخر، ولكنه ضيّع الفرصة وتهاون لمجموعة من الأسباب والظروف جعلته نسخة مشوهة لا صلة له بالحرية ولا بالإسلام، إلا أن راهنية الفكر المعتزلي في تجديد الثقافة العربية الإسلامية لا يمكن أن نعول عليه بصفة مطلقة لأنه " من الوهم بمكان تخيل أن تفكّر هؤلاء المفكرين الأوائل يستطيع حل جميع المصاعب التي تعترض المجتمع الحالي، فهو يمثل مع ذلك حثا إيجابيا للأبحاث الأكثر تعمقا، نحو دروب أكثر انفتاحا تتصل بمتطلبات زماننا"[1].

إذ يمكن أن نعتبر الحل المعتزلي أنه حل للمصالحة بين الإنسان وذاته، فحتى نخلق ذلك التصالح بينهما لا بد لنا من الشعور بها، حتى نستطيع أن نصنع إنسانا صالحا راض عن نفسه وواقعه ودينه من خلال إحساسه وقناعته، وليس ضائعا في حاضره ومنفلتا من ذاته ومشوها من فكره ومبتعدا عن دينه، مثلما كان يسعى ابن رشد في نضاله إلى البحث "عن مدينة الإنسان الكامل والناموس الفاضل، وعن المدينة التي يغيب عنها وحداني التسلط الذي أنهك العباد والبلاد، وأفسد النواميس والعقائد، مدينة بلا متكلمة ولا فقهاء العامة، بل بفلاسفة وعلماء دين متنورين، لا يجعلون ظاهر الشرع مقصدهم. إنها مدينة يجد فيها الإنسان نفيه، وتؤمّن له الحرية والعدل، والمساواة الاجتماعية"[2].

خاتمة:

ما يؤخذ على الشيخ أبو عمران في طرحه لمشكل الحرية عند المعتزلة، أنه اكتفى بالسرد التاريخي لامتدادات الفرقة الكلامية وتأثيرها الثقافي في الآخر، خاصة في تناول مشكلة الحرية، ويمكن أن يلاحظ أي باحث هذه الإضافات الايجابية، لأنها المقولات التي تميزت بها عن غيرها من المدارس الكلامية، فهي الفارق والمفصل، إذ لم يقدم مفهوما عن الحرية يكون أكثر مقاربة للوعي الإنساني على الرغم من أنه فصّل في المسألة، بمعنى آخر أنه لم يوضح كيف للوعي العربي أن يتمثل هذه المفاهيم وكل العلائق الخاصة بالطرح المعتزلي للحرية مادام أنها تجربة إسلاموية، أي حرية بالمفهوم الإسلامي ووفق المعطى الديني؟ خاصة وأن الخطاب الفلسفي ونظرياته يبقى دائما

[1] - نقلا عن: عبد القادر بو عرفة، السياسة والمدينة من خلال الضروري في السياسية، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 2006، ص179.

[2] - Ibid. p11.

بعيدا عن متناول الوعي الجماعي، فهو لغة الخاصة، فما نلاحظه على الغالب أن الوعي مؤسس على تصور ديني يكرس للجبر في كل ما يخص الحياة.

قائمة المصادر والمراجع:

1-أبو عمران الشيخ، قضايا في الثقافة والتاريخ، ثالة، الجزائر، د(ط)، 2007.

2-سلطان بن عبد الرحمن العميري، فضاءات الحرية بحث في مفهوم الحرية في الإسلام وفلسفتها وأبعادها وحدودها، المركز العربي للدراسات الإنسانية، القاهرة، ط2، د(س).

3-عبد الرحمن الكواكبي، أم القرى، المطبعة المصرية بالأزهر، د(ط)، 1931.

4-عبد القادر بو عرفة، السياسة والمدينة من خلال الضروري في السياسية، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، 2006

5-عبد القادر بو عرفة، العرب وسؤال الحرية، تأملات في أوهام الوعي العربي المعاصر، أعمال الندوة الفلسفية السابعة عشر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009.

المجلات:

1-أبو عمران الشيخ، رسالة جامعية في فكر المعتزلة، مجلة الأصالة، العدد، 38، ، أكتوبر 1976، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية.

المصدر باللغة الفرنسية:

1-Chikh Bouamrane. Le problème de la liberté humaine dans la pensée musulmane, (solution mu'tazilite), librairie philosophique, j.vrin1978.